

مشاكلنا العائلية

بقلم السيدة زاهية مرزوق

مشاكل الأسرة كثيرة ومتباينة ، وجراثيمها المنتشرة في كل مكان ترزعزع كيان المنزل المصرى وتهدم أركانه ، وقد عزا البعض أصل البلاء إلى المرأة ، وقالوا إن هذه المشاكل التي تزداد وتكثر في حياتنا اليومية ، والتي تملأ قاعات المحاكم الشرعية إنما هي دليل على إخفاق المرأة المصرية في القيام بأهم رسالة لها في الحياة . وادعى البعض الآخر أن هذه المشاكل ما هي إلا نتيجة لسيطرة الرجل وأتانيته وحبه لنفسه وطفليانه على حقوق المرأة والأسرة .

وفي الحقيقة إن مشاكل الأسرة المصرية خليط بين هذا وذاك ، فنجد أن الحق للرجل وعليه ، والحق للمرأة وعليها ، وهذا طبعا يختلف باختلاف الظروف .

فنظام الحياة الاجتماعية قد تغير بما طرأ على المدنية المصرية من تغير ، ومطالب الرجل في المرأة اليوم غيرها بالأمس . فقد كانت المرأة تشتري بالمال كما يشتري أثاث المنزل ، ولقد كانت التعامل القديمة تعدّها لمثل هذه الحياة ، فالرجل كان المسيطر على كل شيء ، وهي الصاغرة الذليلة المليئة لطلباته ، المدبرة لمنزله ، المربية لأولاده ، فهي تحيا حياة آليّة بعيدة عن الغذاء الروحى والعقل . وهكذا رضيت المرأة بنصيبها الضئيل من نعيم الحياة . فاصبحت أما أكثر منها زوجة ، وخادما لمنزل الزوجية أكثر منها شريكة لزوجها في الحياة . ورأى الرجل إذ ذاك أن يبعدها عن الحياة الفكرية والروحية التي تساعد على النهوض بنفسها الى مستوى أعلى . فظلت حيث كانت الى أن ساعدها الحظ وسمح الرجل أن يتركها تنهض بحركة تعليمها وأعطاهها قليلا من الحرية في التفكير ، ففتح ذلك عينها للطلبة بحتمها الشرعى في مشاركة الرجل لا في حياته الجسمية فقط ، بل في حياته الفكرية والعقلية والنفسية أيضا . فعل الرجل ذلك ولكنه نسي أن يعد نفسه لهذا التطور والاعتراف بالواقع . ونسى أيضا أن يعد المرأة لأن تكون خير مثال عملى لاعتراف الرجل لها بهذا الحق . فهي وقفت في منتصف الطريق فتركت التعامل

القديمة ولم تجدد تعاليم جديدة يمكنها الارتكاز عليها في تأسيس المثل الأعلى للمنزل الزوجية ، فأصبحت تطالب بالحرية والمساواة وهي لم تعد نفسها بعد الإعداد الكافي لحمل المسؤوليات التي تترتب على هذه الحقوق ، وهي من الناحية الأخرى ليست بكفءتها بعيدة عن مشاغل الحياة الخارجية لاهم لها إلا إدارة منزلها وتبدير سبل الراحة للزوج والأولاد ، ولاهي أيضا بالمرأة المتعلمة المدبرة القديرة على خلق جو سعيد وعيشة هائلة لزوجها وأولادها . وفي هذا الأمر قد اختلفت نظرة الجدة والحفيدة ، فالجدة كانت تنظر إلى الحياة نظرة الراضى بعيشته ، المستقر في حاضره ، الآمل في مستقبله ، بخلاف نظرة الحفيدة التي تجذبها الأهواء وتسفلها عن عملها المقدس كمايات اندنيا ، فتجدها لاهية عن الضروريات ، ناظرة للزواج إما كوسيلة للوصول إلى الحرية التي تسعى إليها بعيدا عن منزل الوالد الشديد ، أو كوسيلة لشراء أثاث حديث وملابس فاخرة ، فهي لا تقدر المسؤوليات التي ستلقى على عاتقها ولا الآمال التي وضعت فيها .

وإذا مررنا سريعا على شؤون الحياة لوجدنا أن المدنية تجبر كل فرد على أن يعد نفسه للحياة التي يريد أن يحياها : فالمهندس يدرس ويخصص نفسه لمهنته ، والمحامي يدرس ويتمرن ليكون قديرا على القيام برسالته ، وكذلك الفتاة يجب أن تدرس وتتخصص لتكون زوجة قائما .

وها نحن نرى المعاهد تفتح لتعد الفتاة بدورها للحياة ، ولكن أى نوع من الحياة ؟ هل تعدها للرسالة التي خلقت لها أم لشيء آخر ؟ وبمنظرة بسيطة نجد الفتاة وقد اتجهت في تيار خاطئ من التعميم ، فهي تطالب بتعليمها فنون المحاماة والتجارة والصحافة ، والطب والصيدلة وغيرها . ولكنها لم تفكر مرة في أن تطالب بفتح مدرسة عليا لإعدادها للأُمومة والزوجية إعدادا صحيحا . أنا لا أنكر على الفتاة التبحر في العلم والتفقه في أصوله ، ولكن الذي أنكره عليها أنها تستمر برسالتها الطبيعية وتطرحها زاوية النسيان كأن الإدارة المنزلية من اختصاص الخدم ، وكأن تربية الأطفال من اختصاص الدادات ، وكأن تسلية الزوج من اختصاص المقاهي والبارات !!

حقيقة إن المنزل كان فيما مضى خير مدرسة لإعداد الفتاة للحياة الزوجية ، ولكن الحالة تغيرت الآن ، فقد تكدمت مطالب الحياة وزادت تعقيدا ، وبذلك أصبح المنزل المصرى والأم المصرية غير كفيلين بإعداد المثل العالى من الزوجة العصرية التي يطلها الرجل . ومن

الناحية الأخرى فإن الرجل لم يفكر يوما أن يعد نفسه هو أيضا للحياة الزوجية الحقة ولتربية أولاده وفهمهم الفهم الصحيح .

وهكذا يتقدم الطرفان للاشتراك في حياة لا يقدران قيمتها ولا يشعران بمسئوليتها ، هذه الحياة التي كان يجب أن يكون أساسها التفاهم والثقة والتعاون والعزيمة الصادقة على أن يكون بناء الأسرة متينا لا تزعزعه زوايج المشا كل التي كثيرا ما تتعرض لها الأسرة .

والمرأة تبدأ حياتها الزوجية بعدم نقتها بزوجها . وكم آلتى سماع حديث السيدات ونصائحهن في أثناء زواجه . فيقلن لى : لا تتق بزوجه فانه سيخونك يوما ما ، الرجال نوع لا يؤمن . كوفى على حذر دائما . وفى أى مجلس من مجالس السيدات إذا دار الحديث حول هذا الموضوع شعرت بهذه الأفكار السيئة تسرى في الجميع . وكيف يمكن للمرأة أن تتق بزوجه إذا كانت مشبعة بهذه الفكرة من أول الأمر ؟ ؟ وفكرة أن الزوج له الحق في أن يتزوج على زوجته ، وله الحق أن يطلقها بكل سهولة جعلت حياة الأسرة وخصوصا الزوجة عديمة الاستقرار ، قليلة التعاون . فهي لا تنظر للمستقبل ، بل أمامها الحاضر فقط . وهي لا توجه عنايتها إلى الحالة الاقتصادية للأسرة ظنا منها أن رخاء زوجها ضد مصالحها . أعرف سيدة لا تعرف معنى الادخار في حياتها المنزلية أو في ملابسها ، فهي مبذرة إلى درجة الجنون . تصرف نصف دخل زوجها على زينتها وملابسها ، وإني أعلم أن في طاقتها أن تدخر ، وفي طاقتها أن تقتصد ، ولكن الشك في إخلاص زوجها هو الذى يمنعها من الاقتعاد ، فانها إذا ادخرت استولى زوجها على النقود وأمكنه التزوج بأخرى . وحس الظهور والتشى مع "المودة" في أثاث المنزل من أهم متاعب الأمرة الاقتصادية ، أعرف سيدة من هذا النوع لذتها التغير والتبديل بصرف النظر عن مالية زوجها ، فهي إذا خطر لها أن تغير حجرة الصالون غيّرت بدون استشارة الزوج وبدون أن تفكر من أين ستأتى بأقساطها الشهرية . حضر زوجها يوما من عمله فوجد أثاث منزله يستبدل بغيره فدهش لهذه المفاجأة ولكنه بعد الاستفسار وجد أن الزوجة فعلت ذلك لأنها استولت على إيجار أطباها ، فدفعت القسط الأول وانكلت على مرتب زوجها في بقية الأقساط .

ومن مشاكلنا الاجتماعية طريقة الزواج ، فهي تبني عادة على المسادة قبل أن تبني على الروح والجوهر ، ويتناسب مقدار الاختلاف مع قدرة الزوج والزوجة المادية والاجتماعية .

فكلا الطرفين يعتقد أن الزواج غنيمة يجب الاستيلاء عليها قبل أن تفلت ، فوالد الفتاة يرهق الزوج بطلباته من مهر وشبكة وخلافها ، والزوج يرهق الوالد بطلباته من أثاث وكاليت ، والفتاة ترهق الاثنين أولا وآخرا . فالطريقة المتبعة في تجهيز الفتاة قبل الزواج تضع الأسرة المصرية في مركز لا تحسد عليه . فالوالد تحت ضغط السيدات الجاهلات يضطر إلى إرضاء فتاته ولو أدى الأمر إلى إفلاسه ، ونسى الجميع أن السعادة الزوجية ليس أساسها الأثاث الفاخر بل الوفاق والتفاهم والتضامن ، فالفتاة لا يهمها إلا الاستيلاء على كل ما تقع عليه يدها من منزل والدها بدون مراعاة لظروف زوجها المستقبل وبذلك تضر الزوج والوالد معا .

لماذا نبدأ حياتنا الزوجية بتلك المظاهر انغالية من الأساس الصحيح للسعادة الزوجية ؟

ولماذا لا يكون التفاهم الزوجي تاما قبل أن تشرع الأسرة في بناء عشها ؟ ولماذا لا تكون البساطة والأناقة والذوق السليم هي الحكم في تأسيس بيت الزوجية ؟ ؟

وإهمال الزوجة لنفسها إهمالا كليا بعد الزواج من العوامل التي تؤثر في السعادة الزوجية فتجد الفتاة قبل الزواج تعتني بنفسها وزينا وشكلها وجسمها ، ولكنها تنقلب إلى العكس بعد استيلائها على الزوج المرغوب ، وكأنها كانت ترى ضرورة هذا العمل لإغراء الزوج المسكين . فبالله كيف يكون حال الزوج لو اعتقد أنه كان فريسة لهذا الاغراء ؟ فعل الفتاة أن تعلم جيدا أن الزواج ليس النهاية بل البداية للحياة الحقيقية وأن في مقدورها أن تجعل هذه الحياة سعيدة محبوبة للزوج شيقة في نظره .

السيدة المصرية تهمل نفسها ألاهمال كله في بيتها وأمام زوجها ، فهي لا تترين إلا إذا خرجت لشراء حوائجها أو لزيارة الأهل والأصدقاء ، وإذا فاجأها أحد بالزيارة تأبى مقابلته إلا بعد أن تعد نفسها لهذه المقابلة ، أما زوجها فيدخل ويخرج ولا حساب له في نظرها ، يأتي من عمله فيجدها منكوشة الشعر قذرة الملابس فيشتم من رؤيتها ، وما أسرع أن يخرج ثانية إلى القهوة ليمتع نظره بمنظر أخرى وعلى ممر الزمن يمل رؤيتها ، وربما أدى به الحال إلى كرهها .

ألا فلتعلم المرأة أن زوجها أحق بزيارتها من سواء ، ولتعلم أيضا أن هذا الزوج يحب التجديد والتنويع وهذا سلاح يمكن المرأة أن تستغله أحسن استغلال ، يمكنها أن تكون ماهرة

في تجديد منظرها . . . في تجديد زينتها . . . في تجديد منزلها . . . في تجديد طمهيها !! فلكل جديد لذة !!! وهكذا يمكنها أن تستعمل فنها وذوقها في جذب الزوج للمنزل وخلق جو سعيد في الأسرة .

وامتلاء البارات والمقاهي ودور اللهو والتسلية بالرجال ظاهرة اجتماعية خطيرة تهدد الأسرة وكيانها ، وقد عزى البعض ذلك إلى اخفاق المنزل المصري في الناحية الاجتماعية . وإنى أعتقد أنه إذا وجد الزوج ما يستهويه ويسليه في المنزل لما عرف باب المقهى ولا عاقب نفسه بالجلوس كل يوم تلك الساعات الطويلة في مكان معين على شكل معين .

فالرجل يترك منزله إلى الخارج لأن الحياة الاجتماعية فيه معدومة ومملة ، ولأن الزوجة خالية الذهن من واجباتها الاجتماعية ، ولأن الشاب في الأصل لم يعوّد أن يصرف وقت فراغه في شيء نافع كالموايات العملية مثلا ، تلك الموايات التي ليس لها من أثر في حياة الفرد الاجتماعية في مصر .

ومن العيوب التي نجدها في المرأة المصرية ، إظهار عدم قدرتها على إدارة شئون منزلها وتربية أطفالها . فهي تستقبل الزوج بشكواها من الخدم أو الأولاد ، غير مفكرة أن هذا من اختصاصها ، وأنها بذلك تعطى الزوج فرصة للتدخل في أعمالها المنزلية ، فهي تركز إلى الزوج في حل مشاكلها كبيرها وصغيرها . غير مميزة للظروف المختلفة ولا مقدرة لمقدار استعداده لسماع هذه الشكوى ، فالزوج التعب المنهوك القوى الذي يأوى لمنزله لتلمس الراحة ، لا يحتمل سماع المتاعب المنزلية .

وبعد فأراني أشدد في حملتي على المرأة ، وأخشى ألا يروق ذلك سيداتي خصوصا اللواتي لا يواجهن الحقائق . ولكن في الحقيقة ليست المرأة هي العامل الوحيد في هذا الخلل العائلي بل نجد من الرجل وأهله وأهل الزوجة وأقاربها ما يزيد هذه المشاكل كل تعقيدا . فالرجل المبذر الذي يصرف معظم دخله على لذته الشخصية استهتارا منه بحقوق الأسرة ، والرجل الذي يقضى طول وقته إما على موائد الميسر ، أو في الشراب أو السباق ، والرجل الذي لا يرى حقوق الزوجية المقدسة ويتنكح حرمتها ، والرجل المستبد برأيه الذي يسلب زوجته حقها في إدارة منزلها ونصيبتها في تربية أولادها ، ذلك الرجل لا يمكن أن يعيش في سلام ووثام مع الأسرة .

زاهية مرزوق